حوليات آداب عين شمس المجلد 50 (عدد أكتوبر – ديسمبر 2022)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

تأملات المفسرين البلاغية في التعالق الخفي بين المتعاطفات
عرض وتقييم

د. سعيد بن عثمان بن محمد الملا*

قسم اللغة العربية وآدابها– كلية الآداب – جامعة الملك فيصل
Dr.saeedalmulla@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/4/23
تاريخ قبول البحث: 2019/5/20
تاريخ النشر: 2022/12/29

المستخلص:

من جماليات النظم البياني في القرآن الكريم أنك تراه يجمع في تراكيبه المعبّرة بين ما ظاهره التباعد، فإذا نقّبت في بيئات المباني ودقائق المعاني، خرجت بأسرار بديعية ومقاصد هادفة، من خلال توظيف النّظم لتقانات أسلوبية في غالية البلاغة، من ذلك العطف الخفي العلاقة بين المفردات، أو بين الجمل، ولبلاغيي المفسرين في هذا تأملات جديرة بالدرس، وهي وإن لم تخل من تكلفات دفعهم لها الحرص على تطلب المناسبات، إلا إنها فتحت آفاقًا لدراسة هذا اللون الرفيع من بلاغة الذكر الحكيم، والتي كانت محل عناية الباحث في هذا التطواف الماتع .

مفاتيح البحث: تأملات بيانية، بلاغة قرآنية،عطف، علاقة خفية.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2022.

مقدمة

ماز الله ــ جل في علاه ــ نظم كتابه المبين بما يخلب الألباب، ويقطع الحيل دون مطاولة مقاماته العلية، فلا يزال هذا الكتاب المنير حتى يرث الله الأرض ومن عليها مهوى أفئدة المقتبسين من وهج سحر بيانه، وبدائع مقاصده، تلك التي تتربى الأذواق في معراجها، من ذلك جمعه بين المتعاطفات المتباعدة المعاني، والتي يلوح ظاهرها بعدم التناسب، ما يبعث المتأمل الشغوف بالغوص في هذه المفازات الخفية؛ لينتهي إلى تلك القيم المقاصدية التي يتغياها التنزيل.

لهذا عقد الباحث العزم على التطواف في حدائق النظم الكريم سابرًا أغوار بلاغة ما لفت نظره من مواضع جمعت بين المتباعدات، وشاءت الحكمة الإلهية أن تخفى مناسبة اجتماعها في سياق واحد، تلك التي صالت فيها أقلام البلاغيين من المفسرين وجالت، فجاءت بالثمين القمين، ولم تخل من التكلف تارة، والتمحل أخرى تطلبًا للمناسبة، وكأن أمر خفائها مقلق[1]، بينما الإنصاف أنه مقصد شريف ومبلغ طريف، يعرف ذلك من خاض غماره، وآنس أنواره.

الدراسات السابقة:

مع كثرة ما كتب حول بلاغة التناسب، والعطف في القرآن الكريم، ومع أن العطف مبني على التغاير بين المتعاطفات إلا أنها لم تعالج هذا النوع من التباعد المعنوي الذي يوحي ظاهره بعدم التناسب.

ومن تلك الدراسات المستفيضة:

1- الجوانب الدلالية لحروف العطف في الخطاب القرآني لمبروك عائشة: وهي دراسة دلالية تحليلية تقدم بها الباحث لنيل درجة الدكتوراه من جامعة جيلالي ليابس من الجزائر، وفيها ركز على دلالات الحروف، ومع أنه عقد فصلًا لدراسة العطف التلازمي والتقابلي إلا أنه أورد شواهد ما اشتهر فيه التناظر والتضاد المعروف، كالجمع بين الأعمى والأصم، والبصير والسميع، والموت والحياة والسماء والأرض والجنة والناس، والحلال والحرام.

2- عطف التغاير في القرآن الكريم، قراءة جديدة في تراث تليد، لمتولي محمود عوض حجاز. وهو بحث ضمن مجلة الدراسات اللغوية بجامعة أم القرى، جدّ فيه صاحبه لإثبات إمكانية عطف ما تغاير بين أشكال القول بحيث يصح عطف الاسم على الفعل والعكس، وعطف الفعل على الفعل وإن اختلف زمن أحدهما بين المضي والمضارع والمستقبل، وهو الأمر الذي كان وقف جمع من قدامى النحاة منه موقف الرفض إلا بتأول في أحدهما.

3- التناوب في المعنى بين حروف العطف: دراسة في القرآن الكريم، للدكتور حجّاج أنور عبدالكريم، وهو يناقش فكرة نيابة حرف عطف عن آخر في الاستعمال القرآني، أو وضع حرف عطف ويهدف البحث إلى دراسة هذا المسلك اللغوي في استعمال حروف العطف في القرآن الكريم، ومحاولة متابعة مواضعه المختلفة، وأشهر ما تحقق فيه من حروف العطف، ثم مناقشة آراء النحاة والمفسرين في ذلك، وكذلك بيان القرائن أو المعاني المختلفة التي قد تشهد بهذا التحول في معنى حرف العطف.

هذا بالنسبة للدراسات العامة، أما الدراسات الخاصة بالسور فهي كثيرة، فمنها:

1- حروف العطف في سورة البقرة فهي دراسة تطبيقية تحليلية لرقية بنت أبي طالب.

2- استعمال حروف العطف في سورة التوبة، لمحمد إبراهيم، بحث مقدم لاستكمال متطلبات درجة علمية في جامعة علاء الدين الإسلامية بمدينة مكاسر في أندونيسيا.

3- أثر حروف العطف في سورة عبس، لأحمد رجب حمدان من جامعة الأنبار، وهو بحث منشور ضمن مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية بالعراق.

4- العطف ووظائفه التركيبية والدلالية في سورة هود، لفضل يوسف زيد وهو بحث ضمن حوليات آداب عين شمس.

وفي أمثال هذه الدراسات دارت جهود الباحثين في مجملها على تطبيق نظريات النحاة في دلالات الحروف واستعمالاتها،والبحث في الأسرار التي أرشد إليها البلاغيون في مباحث الوصل بين المفردات والجمل تبعًا لاختيار التعبير بحرف دون غيره.

خطة العمل:

وقد قسم الباحث مقاربته هذه بعد التمهيد لها إلى قسمين، وجعلها في مبحثين:

الأول: التعالق الخفي بين المفردات المتباعدة المعنى من المتعاطفات.

الثاني: التعالق الخفي بين الجمل المتباعدة المعنى من المتعاطفات.

منهج الدراسة:

تجدر الإشارة إلى أنني اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي، الذي يمكنني من خلاله أن أقف على الوشائج القائمة، بين نظم اللغة في تركيبها، وبين ما تؤديه من معاني وأغراض، والتي تسهم في تقييم آراء البلاغيين من المفسرين تجاه هذا النوع اللطيف الخفي الدلالات في القرآن الكريم.

ومنهيًا بخاتمة وضعت فيها أبرز النتائج التي ظهرت لي بعد هذا التطواف الماتع.

مستعيذًا بالله من القول على الله بما لا أعلم، وسائلًا مولاي أن يغفر لي ما زلّ به اللسان، وأسرف فيه القلم، والله من وراء كل قصد.

تمهيد

يشترط لتحقق عملية العطف وجود جهة جامعة، وحكم مشترك بين المعطوف والمعطوف عليه، والتناسب بينهما، وقد اعتمد النحاة على فكرة التناسب الذي يقوم على المعنى بين المتعاطفين في تفسير ظاهرة العطف (فليس العطف مجرد جمع بالواو بين عنصرين) مفردتين أو جملتين "إنما هو نتيجة عن أمر آخر، هو بالأساس أمر معنوي يقوم على "جمع المجتمع" دون أن يبلغ ذلك درجة الاستواء" [2]، والإخلال بهذا الشرط يفضي إلى فساد الكلام؛ فالتناسب والمعادلة بين المعطوف والمعطوف عليه حتى تتحقق عملية العطف ضرورة، وهو شرط دلالي بالدرجة الأولى.

والمناسبة نوعان: مناسبة فحوى، ومناسبة غرض.

وفي باب المناسبة من حيث الفحوى، يقول الجرجاني:"وجملة الأمر أنها لا تجيء حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقًا للمعنى في الأخرى ومضامًّا له، مثل أن "زيدا" و"عمرا" إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة، كانت الحال التي يكون عليها أحدهما، من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك، مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك، وكذا السبيل أبداً" [3]. وهو ما يعنينا بالدرجة الأولى في هذا البحث.

وأما شرط المناسبة من حيث الغرض فأن تكون الجملتان المعطوفتان كلتاهما خبريتين، أو استفهاميتين، أو أمريتين.

وقد تناول اللغويون العرب القدماء والبلاغيون خاصة الجمل التي لا تستجيب لشرط مناسبة الغرض، كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[سورة الشرح] حيث عطفت جملة خبرية على جملة استفهامية، وعللوا جواز العطف في مثل هذه الحالات بأن المسوغ له هو أن الجملة المعطوف عليها جملة خبرية من حيث الغرض الفرعي، وإن كانت استفهامية من حيث الصيغة [4].

ثم إنه لا بد في صحة العطف من توافر الاختلاف بين المتعاطفين فالشيء لا يعطف على نفسه، إلا أن النحاة رحمهم الله حصروا الاختلاف بين المتعاطفين في اللفظ، ولذا لا يصح عندهم أن نقول: جاء الشيخ والشيخ؛ لأن المعطوف والمعطوف عليه واحد، فلا بد من أن نغاير بينهما في اللفظ، فنقول: جاء الشيخ والأمير، حتى يصح مبدأ الاختلاف بين المتعاطفين عندهم، والحقيقة أن مثل هذا العطف صحيح المبنى والمعنى، فالشيخ لفظه ومعناه الوضعي واحد، إلا أن المعنى المقصود في الاستعمال يتعين من خلال قصد المتكلم وفهم المخاطب والسامع، فقد يكون الشيخ الأول دالاً على المعلم والثاني على طاعن السن، وحينئذ يجوز العطف وفق هذا المعنى القائم على تفعيل المقصود بالمعنى، وإبراز دور المتكلم والمخاطب، فالاختلاف يجب أن يخصص بالمعنى الاستعمالي [5].

ويحاول هذا البحث أن ينهض بمهمة كشف شيء من العلاقات الخفية للنص، في القرآن الكريم سواء بين مفرداته أو تراكيبه، والتي قد تبدو لأول وهلة أن لا جامع بينها ولا رابط، وذلك من خلال ظاهرة نحوية، أولاها النحاة والبلاغيون أهمية خاصة، تلكم هي ظاهرة العطف، وهي ظاهرة تتميز بخصوصيات معينة؛ فقد أتاح لها النظام اللغوي أن تتنوع وأن تتعدد، فيمكن أن يعطف المفرد على المفرد، والتركيب على التركيب، والجملة على الجملة، بل والمتتالية من الجمل على المتتالية التي تتشاكل معها وتتناسب.

وهذا التنوع والتعدد الذي أتاحه نظام اللغة لظاهرة العطف "يجعلها تؤدي وظيفتين في السياق النصي الذي ترد فيه: وظيفة تركيبية، وهي إطالة بناء الجملة الأصلية من خلال ضم المتعاطفات بعضها إلى بعض، ووظيفة دلالية غالباً ما تترتب على الوظيفة السابقة"[6].

وقوة الجمع بين المتباعدات مصدر قوي التأثير[7]، وهو أتم وأفضل من الجمع بين المتشابهات، وهو مما يثلج الصدر ويحرك النفس ويستثير الأريحية؛ لحسن تبدي الأضداد وتآلفها؛ لأن الوفاق بين الأضداد يفتح أبواب الاتصال بين عالمين جرت العادة على اعتبارهما منفصلين، يستثير الفكر والتأمل من أجل إدراك الخفي المراد[8].

وقد احتفل إمام البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني بأمر الجمع بين أمرين خفت علاقتهما في الكلام[9].

وقياس القدرة على الربط بين المتباعدات يعد من أسس التفكير الإبداعي اللغوي لتحليل النصوص، وقد ركز النقاد فيه على مدى قدرة النص على إنتاج روابط مبتكرة، أو غير مألوفة بين الكلمات، بدلًامن إنتاج روابط مألوفة يعتمد فيها الفكر على تداع المعاني، مثل ارتباط قلم بورقة أو سماء بنجوم وسموا اختبارهم هذا اختبار الربط البعيد[10].

وعليه فإن الكشف عن التعالق في مثل هذه الأحوال يعد من مواهب التفكير التباعدي إذ يتوصل فيه المتأملون إلى جوانب ربط مذهلة، وهو ما حصل مع جماعة من المفسرين ممن تفتقت قرائحهم وجادت بالكشف عن مثل هذا، في مباني التراكيب المنتظمة في سياقات بيانة حساسة في كتاب الله.

والعطف بين المتباعدات من الأمور المستحسنة الموجودة في الطباع، حيث اعتاد الإنسان أن يبحث عن الخيوط الدقيقة التي تجمع بين الأمور المتباعدة في نسق واحد ُ وهو تعبير بلاغي أو تصرف لغوي يكشف عن علاقة من التضايف بين المعنيين، عن طريق كل جديد تتحرك فيها المتعاطفات بتراسلها الخاص، وتكون مجالًا بنيويًا ذا إيحاء جديد[11].

وأمارة تأمله في كلامهم تطّلبالمناسبة الخفية، فتراهم يضربون الوجوه في تقريب وجه الاقتران والجمع بين المعنيين.

وربما أعرضوا تارة عن مقاربة الحديث حوله، وكأن شيئًا لم يكن،كالرازي في بعض مواضع ذلك، وهو الذي لم يكن من عادته أن يضيع مثل هذه اللطائف في مسائله التي يثيرها عند الآي.

المبحث الأول

التعالق الخفي بين المفردات المتباعدة المعنى من المتعاطفات

الأصل في العطف أن يكون في المفردات: الأفعال والأسماء، أما الجمل فمحمولة عليها، لأن التبعية لا تكون إلا في المفردات أصالة، فالفعل يعطف على الفعل كما أن الاسم يعطف على الاسم؛ لأن عطف اللفظ على اللفظ يقتضي تشريكه معه في معناه المختص به، أو عامله المختص به، وهذا المعنى يوجب ألا يعطف الاسم على الفعل، ولا الفعل على الاسم؛ لأن عوامل الأسماء لا تطلب الأفعال، ولا بالعكس، ومعاني الأسماء لا تقتضيها الأفعال، ولا بالعكس فلا يصح عطف اللفظ على ما ليس من جنسه ولا من شكله[12].

كما أن الأصل في المفردات الارتباط والتركيب، ولقد ربط النحاة بين وصل الجمل بعطفها وعطف المفردات في إطار منظومة الأصل والفرع عندهم، حيث جعلوا عطف المفردات أصلاً، وحملوا عليه عطف الجمل[13].

والمفرد في باب العطف هو ما ليس جملة ولا شبه جملة؛فهو كالمفرد في باب الخبر والنعت، والحال..، ويدخل في عطف المفرد هنا عطف الفعل وحده بغير متعلقاته على فعل آخر وحده، بخلاف عطف الفعل مع متعلقاتهعلى فعل آخر بمتعلقاته، فهو عطف جمل[14].

ولعل ما ينبغي أن يأرز النظر إليه في أحوال المفردات المعطوفة من حيث شكلها اللفظي –تطلباً لأسرار الخفاء المعنوي بين ظاهرها–هو ذلك الخفاء الذي نجد كل مواضع العطف فيها لم يخالف المعطوف فيه المعطوف عليه في شكله، فلا نكاد نجد فيما خفي تناسبهما من المتعاطفات اسمًا معطف على فعل أو عكسه، والسر في ذلك والله أعلم وأحكم؛ الإلماح إلى أن هناك لحمة معنوية خفية يرمز لها هذا التناسب الشكلي ويشير إليها في لطف بديع.

وعلى هذا فيمكنني أن أتناول هذه الشواهد في مسارين، وفق ما يلي:

أ) <u>عطف الاسم على الاسم:</u>

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ للكفرين ﴿٢٤﴾[البَقَرَةالآية ٢٤]

يقول الزمخشري(583ه): "فإن قلت:لم قرن النّاس بالحجارة؟ وجعلت الحجارة معهم وقودًا؟ قلت: لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً أو عبدوها من دونه"[15].

فالناظر في هذا التعليل الذي يخلب الألباب ويأخذ بمجامع القلوب، ينتشي لسحر التنزيل، ويعجب من فطنة هذا الإمام المقدّم في فنّه، إذ لفت النظرإلى منشأ ضلال هؤلاء الناس المأمورين باتقاء النار، وهو عبادتهم للأحجار التي لن تغني عنهم يوم العذاب شيئًا.

وقدّم النظم هنا الناس على الحجارة؛ لأنّهم العقلاء الذين يدركون الآلام والمعذّبون؛ أولكونهم أكثر إيقادًا للنار من الجماد، لما فيهم من الجلود، واللحوم، والشحوم، والعظام، والشعور؛ أو لأنّ ذلك أعظم في التخويف، فإنّك إذا رأيت إنسانا يحرق، اقشعرّ بدنك وطاش لبّك، بخلاف الحجر[16].

ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾[آل عِمۡرَانالآية ١٠]

فقد تكرر في القرآن أن يجمع المال بالولد ويقدم الأول منهما على الآخر، ولمّا كان المال خامس الضروريات الخمس، فهو يكملها بعد الدين، والنفس، والعقل، والعرض، كان من المألوف أن يأتي في الكلام مع أحدها. فلما جاء ذكرهمع الولد كان أمر تعاطفهما غامضًا، ما جعل المفسرين يغوصون في البحث عن سر العطف، ويذهبوا في تعليل ذلك إلى أنّ الغنية في متعارف الناس تكون بالمال والولد، وإليهما الفزع بعد الله في دفع الخطوب[17].

وفي سر تقديم لفظة المال على الولد وإعادة النفي هنا يقول البقاعي:"وقدمها؛ لأن بها قوام ما بعدها وتمام لذاته، وأكد بإعادة النافي ليفيد النفي عن كل حالة وعن المجموع، فيكون أصرح في المرام"[18].

وقوله جل وعلا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النِّسَاءالآية ١]فقد عطف ﴿ٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ على لفظ الجلالة قبله.

وعزّز الطبري لهذا العطف بقوله:" والقراءة التي لا نستجيز لقارئ أن يقرأ غيرها في ذلك النصب: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ ، بمعنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، لما قد بيّنا أن العرب لا تعطف بظاهر من الأسماء على مكني في حال الخفض، إلا في ضرورة شعر"[19].

وفي السر الخفي لهذا العطف يقول الرازي:"لأن العادة جرت في العرب بأن أحدهم قد يستعطف غيره بالرحم فيقول: أسألك بالله والرحم". فهو يرى أن الدافع هو اتباع الاستعمال الوارد عن العرب في سننهم .

ويقول الألوسي: في العطف خفاء، وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه سبحانه على أن صلتها بمكان منه تعالى[20].

ومنه قوله تعالى:﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾[الشُّعَرَاءالآية ١٣٣]

فالجملة مفسرة لما قبلها [21]ولا موضع لها.

ولكن لماذا عطف البنين على الأنعام، ولنقل أيضًا: لماذا قدّمغير العاقل على العاقل؟

يرى أبو حيّان أنّ الله تبارك اسمه إنما بدأ بذكر الأنعام؛ لأنها تحصل بها الرياسة والقوة على العدو والغنى الذي لا تكمل اللذة بالبنين وغيرهم في الأغلب إلا به، وهي أحب الأموال إلى العرب ثم بالبنين؛ لأنهم معينوهم على الحفظ والقيام عليها.

ثم يقول بعد ذلك:"ومن ذلك يعلم وجه قرنهما، ووجه قرن الجنات والعيون في قوله تعالى:﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[الشُّعَرَاءالآية ١٣٤] ظاهر، وكذا وجه قرنهما مع الأنعام"[22].

فلننظر إلى هذا التعليل الدقيق الذي يكشف عناية الخطاب الدعوي في القرآن ورعايته لنزعاتهم النفسية بتسليط الضوء على محبوباتهم، تذكيرًا لهم بالمنعم علّهم يتذكرون.

ويظهر من قول صاحب البحر المحيط: "ووجه قرن الجنان والعيون ظاهر"إشارة جلية لخفاء وجه قرن ما قبله، وهو محل البحث، فلله درّه.

وربما أسهب المفسرون أحيانًا في تطلب مناسبة العطف في مثل هذا النوع، بما لا يشفي الغليل، من ذلك قوله تعالى:﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾[لُقۡمَان الآية ١٦]

فما سر عطف السماوات والأرض على الصخرة، وما سر تقديمها عليهما؟

ردّه المفسرون إلى أحد أمرين:

1- التدرج بالسامع من المعقول إلى الأغرب بالنسبة له، فهو يعي الصخرة بالمعايشة، لكن عالم السماوات خفي بالنسبة له، وأعزّ منالًا عليه، ثم عاد إلى الأرض لتعميم الأمكنة[23].

2-قصد استيفاء الأقسام التي تم بها ذكر الصخرة بكونها أفادت طريقًا من طرق نيل الخفاء وهو الاحتجاب، وإنما ينال بإحدى أربع، ذكروا في الآية، فهو إما أن ينال بغاية صغره وهو ما ينهض به ذكر حبّة الخردل، وإما ببعده عن الرائي ولهذا عبّر بكونها في السماوات، وإما بكونه بكونه في ظلمة وهو ما أفاده ذكر الأرض، وإما باحتجابه وهو ما دلّ عليه ذكر الصخرة بين هذه المذكورات [24].

ومن طريف ما قاله المفسرون في إبهام مكان الصخرة قول الهرري (1441 ه) بعد أن أورد الآية:"تمم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها، وهذا من البديع"[25].

وفي التعبير بالإتيان في قوله تعالى:**سمح**يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ **سجى**"كناية عن التمكن منها، وهو أيضا كناية رمزية عن العلم بها لأن الإتيان بأدق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لا يكون إلا عن علم بكونها في ذلك المكان وعلم بوسائل استخراجها منه" [26].

وربمّا تأرجح الشاهد الواحد في التعاطف الخفي بين القرب والبعد،من ذلك ما أبداه الزمخشري تجاه عطف الأبصار على الأيدي في قوله تعالى:﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾[صالآية ٤٥]

فقد ذهب في البحث عن سر عطف هذين المتباعدين في قراءة الجمهور لفظ (الأيدي) بإثبات الياء مذهباً لطيفًا إذ تأول الأيدي بالأعمال، والأبصاربالفكر، بحيث يكون من عُمّال للهمن لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا

يفكرون أفكار ذوى الديانات ولا يستبصرون في حكم الزمنى الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم[27].وأخذه الرازي فقال:"واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال، والبصر آلة لأقوى الإدراكات، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر"[28].

لكنّ الزمخشري أنكر قراءة ابن مسعود للأيدي بطرح الياء والاكتفاء بالكسرة هكذا (الأيدِ) لتكون من التأييد.حيث قال:"وفي قراءة ابن مسعود: أولي الأيد، على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالأيد- من التأييد- قلق غير متمكن)، وعلّق أبو حيان على كلام الزمخشري بقوله:"وإنما كان قلقاً عنده لعطف الأبصار عليه، ولا ينبغي أن يقلق، لأنه فسر أولي الأيدي والأبصار بقوله: يريد أولي الأعمال والفكر"[29].

ب) <u>عطف الفعل على الفعل:</u>

ومنه قوله عز وجل:﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾[طهمن الآية ١١٨ الى الآية ١١٩]

فما السر من عطف العري على الجوع مع وجود الظمأ الأقرب له في المعنى فيما يبدو.

للمفسرين في سر تعاطف هذه المتباعدات وعدم الجمع بين الشيء ونظيره إشراقات جديرة بأن أدعهم يصرحونعنها بأنفسهم.

ذهب ابن المنير الاسكندي (683ه) في حاشيته على الكشاف مذهبًا بديعيًّا في سر هذا العطف لم يفطن له الزمخشري،حيث قال:"وفي الآية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة، مع ما بينهما من التناسب. والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة"[30].

ويقول أبوحيان:" والجامع في الآية بين الجوع والعري هو اشتراكهما في الخلو فالجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر وبين الظمأ والضحاء اشتراكهما في الاحتراق، فالظمأ احتراق الباطن ألا ترى إلى قولهم برد الماء حرارة جوفي والضحاء احتراق الظاهر"[31].

إلا أن الزمخشري ذكر نكتة في التعبير بالنفي بدلًا من الإثبات حقيق بنا أن نوردها هنا، ولا ريب أن هذا التعبير هو من فتح باب عطف هذه المتباعدات، يقول: "الشبع والري والكسوة والكن: هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان، فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعرى والظمأ والضحو، ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها"[32].

ونقل الهرري كلام أبي حيانمسمياً الخلو في حالتيه ذلاً ثم قال:"فنفى الله عن ساكن الجنة ذل الظاهر والباطن، وحر الظاهر والباطن"[33].

المبحث الثاني

التعالق الخفي بين الجمل المتباعدة المعنى من المتعاطفات

المراد من عطف الجملة على الجملة:"ربط إحدى الجملتين بالأخرى، والإيذانبحصول مضمونهما، لئلا يظن المخاطب أن المراد الجملة الثانية، وأن ذكر الأولى كالغلط، كما تقول في بدل الغلط: "جاءني زيد عمرو"، و"مررت برجل ثوب"، فكأنهم أرادوا إزالة هذا التوهم بربط إحدى الجملتين بالأخرى بحرف العطف، ليصير الإخبار عنهما إخباراً واحدا[34].

والعبرة في العطف المقاصدوالأغراض، لا الألفاظ والكلمات، فقد تتوالى جملتان اسميتان ولا يصح العطف بينهما مع تحقق التناسب والتشاكل بينهما في اللفظ؛ لأن الجملة المعطوفة ليست من سبب المعطوف عليه؛ لفساد المعنى إذا حل الكلام على القول بالعطف، فالفيصل في جواز العطف أو امتناعه أمران:

ــ مقصد المتكلم أو حال السامع أو المخاطب.

ــ الاتفاق والتناسب في المعنى الاستعمالي التخاطبي الحاصل بتركيب الجملة في سياق.

فذلكما هما مدار الأمر،وليس التجانس والتناسب في الشكل، ولا المعنى الوضعي الحاصل من إدراك معاني المفردات المعجمية دون سياقها.

وقد تعددت تقسيمات الجمل في العربية [35]:

فمن ذلك:

أ) بحسب اللفظ والشكل وما يتصدرهاقسمت إلى: جملة اسمية وفعلية.

ب) بحسب اكتناف غيرها لها قسمت إلى: جملة كبرى وجملة صغرى.

ت) بحسب محلها الإعرابي قسمت إلى: جمل ذات محل إعرابي وأخرى ليس لها محل إعرابي.

ث) بحسب المعنى قسمت إلى: خبرية وإنشائية، وهو التقسيم المشهور عند أصحاب المعاني من البلاغيين، وارتضاه النحاة واستعملوه بعدهم.

ولعل ما يتعلق من هذه الأقسام بما نحن فيه في هذا البحث هو الأول منها، وهو ما يعتني بشكلها من حيث هي اسمية أو فعلية، فقد لاحظت في معظم شواهد هذا النوع إن لم يكن كلها إلى اتفاق الجملة المعطوفة والمعطوفة عليها في شكلها من هذه الحيثية، وكأن هذا الاتفاق الشكلي يهدف إلى الإسهام في تخفيف تباعد ظاهر معانيها، بله ما ينطوي عليه من إرسال دعوة ضمنية للبحث عن الجامع الخفي بينها.

ومن عطف الجمل المتباعدة المعنى في ظاهر النظم القرآني قوله تبارك وتعالى:﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾[الأَعْرَاف الآية ٣١]

وللمفسرين في سر عطف الأكل والشرب على أخذ الزينة كلام كثير يقرب ويبعد، ولعلي أن أجمله فيما يلي:

1) أن اللباس والطعام يدفعان خلو الظاهر والباطن على ما تقدم في قوله تعالى:﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾.

2) أن بعض العرب حرّموا على أنفسهم اللباس عند الطواف والطعام الدسم[36].

3) أن الله تعالى لما أمر بالقسط في الآية الأولى[37]، وكان من جملة القسط أمر اللباس وأمر المأكول والمشروب لا جرم أتبعه بذكرهما وأيضاً لما أمر بإقامة الصلاة في قوله:﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾[الأَعْرَافالآية ٢٩] وكان ستر العورة شرطاً لصحة الصلاة لا جرم أتبعه بذكر اللباس"[38].

4) الحاجة للطعام والكساء ضرورة استهلاكية ملحة، والحاجة لها قائمة في كل وقت ولهذا حتى في السنة جاء ذكرهما مجتمعين، من ذلك قوله:"كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ"[39].وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلْ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ[40].

وقد خفيت العلاقة بين المتعاطفات هنا لدرجة دفعت ابن عاشور أن يقول: "وقد ظهرت مناسبة عطف الأمر بالأكل والشرب على الأمر بأخذ الزينة مما مضى آنفا "[41] من غير أن ينص عليها، بل ترك للقارئ مهمة التقاطها من مجموع كلام طويل له أحال عليه،ولم يشر فيه صراحة إلى هذه المناسبة.

وقد يتمحل المفسر للوصول إلى المناسبة بسبب الخفاء، ويستطرد لدرجة تجعل الذهن يشرد عن لاحب القول. تجد ذلك في تَطلّب الطاهر بن عاشور لمناسبة عطف اختلاف الألسنة والألوان على خلق السماوات والأرض في قوله تعالى:﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾[الرُّوم الآية ٢٢]

وملخص ما ذكره أنهإنما عُطف أحوال الإنسان المتخالفة من لغات وألوان على خلق السماوات والأرض؛ لأنها سبب هذا التخالف فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، واختلاف مسامتة أشعة الشمس لها فهي من آثار خلق السماوات والأرض[42].

وقد حير العلماء الجامع بين خلافة الأرض وإجابة المضطر وكشف السوء في قوله تعالى:﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾[النَّمْل الآية ٦٢]، عندما عطف أمرها عليهما فذهبوا في تأويلها كل مذهب، وضرب بعضهم عن تتبع ذلك صفحاً على غير العادة كالرازي الذي لم يكن يدع مثل ذلك إلا وأورده في مسائله.

يقول أبوحيان: "انتقال من حالة المضطر إلى رتبة مغايرة لحالة الاضطرار، وهي حالة الخلافة، فهما ظرفان. وكم رأينا في الدنيا ممن بلغ حالة الاضطرار ثم صار ملكا متسلطا"[43].

ويقول البقاعي بعد أن فسر قوله تعالى:﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾:"ثم أتبعه الأول على وجه أعم، فقال مشيراً إلى عظيم المنة عليهم بجعلهم مسلطين عالين على جميع من في الأرض وما في الأرض مشرفين بخلافته سبحانه، ولذلك أقبل عليهم"[44].

ولله در ابن عاشور وقريحته الطيعة فقد نظر إلى اجتماع هذه الأمور من ثلاث زوايا ليرد لهما الجامع في تعاطف هذه الأمور، وأبدع في كل منها، حين جعلها على النحو التالي:

الأولى : ردها فيها إلى أحوال البشر بحسب تقسيمه فقال:" أحوال الناس التي لا يخلو عنها أحد في بعض شؤون الحياة وذلك حال الاضطرار إلى تحصيل الخير، وحال انتياب السوء، وحال التصرف في الأرض ومنافعها.

فهذه ثلاثة الأنواع لأحوال البشر. وهي: حالة الاحتياج، وحالة البؤس، وحالة الانتفاع...وحالة الانتفاع: هي المشار إليها بقوله﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾أي يجعلكم تعمرون الأرض وتجتنون منافعها، فضمن الخلفاء معنى المالكين...[45]

الثانية: وردها ثانياً إلى مراتب ثلاث:

أ) مرتبة الحاجيات وأخذها من قوله:﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

ب) مرتبة الضروري وأخذها من قوله:﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ معللاً ذلك بإن معظمها أو جميعها حفظ من تطرق السوء إلى مهم أحوال الناس مثل الكليات وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال، والعرض.

ت) مرتبة التحسيني، والتقطها من قوله تعالى شأنه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

الثالثة: وردها ثالثاً إلى المنفعة ونقيضها وأصّل ذلك بقوله:" وقد جمعت الآية الإشارة إلى مراتب المناسب وهو ما يجلب نفعا أو يدفع ضررا وهو من مسالك العلة في أصول الفقه"[46].

والذي أتوجه إليه أنه لما ابتلاهم فدعوه أعطاهم مضاعفًا وهو أثر الدعاء، فجمع ما بين شدة الابتلاء وأوج الإكرام. وأثر العطاء بعد البلاء يعرف كنهه من جرّب.

ومنه أيضاً قوله تعالى:﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾[لُقۡمَان الآية ١٧]

فعادة القرآن أن يتبع الأمر بإقامة الصلاة بإيتاء الزكاة فلِم أتبعه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ومن ألطف من وجَّه هذا العطف البعيد الألوسي حيث رأى أن في الصلاة تكميل للنفس فبقي تكميل الغير بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [47].

ورد الزمخشري مناسبة عطف الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأن الأول من الصبر العام والثاني من الخاص [48].

ولقد حاول الفخر الرازي أن يدلي بدلوه في كشف العلاقة بين غض الصوت والقصد في المشي في قوله تعالى:﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾[لُقۡمَانالآية ١٩] ملمحاً إلى خفائها، وأطنب في ذلك بكلام لطيف لا يخلو من تكلف، بدأه بطرح سؤال وهو أنه هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي؟ ثم أجاب بقوله: نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها، وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يصيبه عد، ولا يعلمه أحد والذي يظهر وجوه ...

ثم انطلق في بناء تلك الوجوه وفق منهجه المنطقي، ولعلي أجمل ما أشار إليه فيما يلي:

الأول: أن المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد وهو إدراك الأشخاص بالسعي إلى أحدهم أو مناداته ليتوقف، فلما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر .

الثاني: انطلق فيه من تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة الذي هو تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

فرأى أن الحديث عن خفاء حبة الخردل يلمح إلى اطلاع الله على إيمان القلب فبقي الآخران فذكر المشي الذي هو من خصائص الجوارح والصوت الذي هو من خصائص اللسان.

الثالث: نظر إليه من كون مكارم الإنسان متوسطة بين مكارم الملائكة ومكارم الحيوان ففي النهي عن تصعير الخد ومرح المشي إشارة إلى مكارم صفات الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم. وفي الأمر بالقصد في المشي والغض من الصوت إشارة إلى المكارم التي هي صفة الحيوان.

ثم أشار إلى لطيفة لا ينبغي إهمالها في قوله تعالى: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير وهي ذكر المانع من رفع الصوت وعدم ذكر المانع من سرعة المشي، ورد ذلك إلى أمرين تبعاً للوجوه السابقة:

الأول: تبعاً للوجه الأول فإن رفع الصوت يؤذي أسماع الغير وقلوبهم تبعًا لأسماعهم[49]، أما المشي فلا يؤذي إلا صاحبه، ومن أعضائه رجله فقط.

الثاني: تبعاً للوجه الثاني فقبيح القول أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى[50].

وجاء في البحر المحيط أيضًا ما فيه إشارة إلى أن سر التعبير بهما تمثيل كل واحد منهما لأحد جنبي التصرف المؤاخذ عليه العبد[51].

وربما حارت أفهام المفسرين في تطلب مناسبة ما خفي سر عطفه، فذهبوا في تلمس وجوه ذلك كل مذهب، كما حصل منهم عند تناولهم لسر عطف إنشاء الأنعام على خلق الإنسان، ليس هذا فحسب بل ما لبث النظم أن عاد لإكمال أوصاف عملية خلق الإنسان، وذلك في قوله تعالى:﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَاجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾[الزُّمَرالآية ٦].

فمن عجيب أقوالهم في ذلك كلام الرازي إذ نظر إليها نظرة منطقية بحتة، فرأى أن النظم الكريم لما تحدّث عن أشرف الكائنات وهو الإنسان، عطف عليه ما بعد في الرتبة وهو الحيوان، ثم بقي أن يأتي بأمر بحالة مشتركة بينهما وهي كونها مخلوقة في بطون الأمهات[52].

أما ابن عاشور، فردّ مناسبة العطف لكون الأنعام يعتمد عليها أود حياة أولئك الأقوام، وجعل الحديث عنها اعتراض وسط الحديث عن البشر وأمر تخليقهم في بطون أمهاتهم بجامع لفظ وهو ذكر الزوجية[53].

ومنه قوله تعالى:﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾[الشُّورَى الآية ٥]

فقد جرى عرف النظم أن يتعاطف ما يتعلق بالسماوات بما يقابلها من شأن الأرضين، كما وقع في قوله تعالى:{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا}[مريم:90]، فالعلاقة بين تفطّر السماوات واستغفار الملائكةهنا خفية، ولذا نرى أقلام المفسرين في مثل هذه المواضع تصول وتجول لتقريب المعنيين المتعاطفين من بعضهما.

يقول الرازي:" واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان: عالم الجسمانيات وأعظمها السماوات، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة، والله تعالى يقرر كمال عظمته؛ لأجل نفاذ قدرته وهيبته في الجسمانيات، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات"[54].

ويقول البقاعي: "وتكون كيدودة انفطارهن في حال تسبيح الملائكة واستغفارهم لما يرين من فوقهن من العظمة، ومن تحتهن من ذنوب الثقلين، فلولا ذكرهم لتفطرن وحضر العذاب، فعوجل الخلق بالهلاك، وقامت القيامة، وقضي الأمر، وإذا كانت كيدودة الانفطار مع هذا التنزيه والاستغفار، فما ظنك بما يكون لو عرى الأمر عنه وخلا منه، ولذلك ذكر العموم هنا ولم يخص المؤمنين بالاستغفار "[55].

ومن وجهة نظري فإن فيما ذهب إليه البقاعي قرب من مقاصد التنزيل، فإن المعنى القرآني يتجه في معظمه للدعوة إلى الله بشتّى الطرق، ففي عطف الاستغفار لعامة الخلق على كيدودة تفطر السماوات دلالة واضحة على بلوغ البشر من الإساءة في جنب الخالق مبلغًا عظيمًا، ويتضمن هذا التهويل دعوة إلى التوبة والاستغفار.

وليس فيما ذهب إليه الرازي كبير شطط، وإنما معنى تمام القدرة وإن تحصل بطرفي العوالم على ما ذكر إلا أنّه على ما ذهب إليه البقاعي يتحقق ويفيض بما ذكره.

ولعلنا نلاحظ اعتدال الرازي غالبًا في تطلب وجوه المناسبات في مثل هذه المتعاطفات التي تفاوتت في درجة خفائها، انظر إلى مقاربته لعطف الأمر بالاستعاذة على وصف المجادلين في آيات الله من غير برهان في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾[غَافِرالآية ٥٦]يقول رحمه الله:"﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾، أي: فالتجئ إليه من كيد من يجادلك إنه هو السميع بما يقولون"[56].

إلا أنأبا حيانقد ذهب مذهباً بعيدًا في استشراف المناسبة بينهما إذ خصّ مجادلتهم بأمر الدّجال ثم عطف عليه أمر الاستعاذة من فتنته[57].

ولعلنا لاحظنا أن تأملات الرازي وتحليلاته في الوصول لغرض عطف ما خفيت علاقة الطرفين فيه، أنها كانت مبنية على مقاربات منطقية في غالبها، ولهذا جاءت مطولة في الغالب، وهو ما يتوافق مع طبيعة منهجه في تفسيره، فعند قوله تعالى:﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[غَافِرالآية ٦٤] نراه يقولفي إثبات العلاقة الخفية في عطف تصوير البشر ورزقهم البشر على أحوال خلق الأرض والسماء، كلامًا كثيرًا، مفاده:أن دلائل وجود الله وقدرته إما أن تكون من دلائل الآفاق التي هي غير الإنسان كالأرض والسماء المذكورة هنا، وأما دلائل الأنفس فالمراد منها دلالة أحوال بدن الإنسان ودلالة أحوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم، كحدوث حسن صورته المذكور، ورزقه من الطيبات وهو المراد من قوله ورزقكم من الطيبات [58].

وقد يُنطلق في تقصي المناسبة بين هذه المتعاطفات من أحد طرفي العطف، كما حصل مع ابن عاشورفي الآية السالفة الذكر، فقد جعل من قصة إيجاد الإنسان، الذي هو أحد طرفي العطف، مستلزمًا لتكييف العوالم من حوله بما فيه مصالحه[59].

وتخلصاً من المؤاخذة راح بعض المفسرين يتكلّف تكلّفًا شديدًا في توجيه المعنى، كما صنع ابن عاشور تسمية جملة﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾من قوله تعالى:﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾[فُصِّلَتالآية ٢١]اعتراضية بين جملة:﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾[فُصِّلَتالآية ١٩]وجملة ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[فُصِّلَتالآية ٢٤]، بعد أن تطلّب لها المناسبة فلم يطمئن إليها.يقول:"ويجوز أن تكون هذه الجملة وما بعدها اعتراضا موجهاً من جانب الله تعالى إلى المشركين الأحياء لتذكيرهم بالبعث، عقب ذكر حالهم في القيامة؛ انتهازاً لفرصة الموعظة السابقة عند تأثرهم بسماعها"[60]، فانظر كيف أحالها إلى الاعتراض، مع طول الفاصل بين المتعاطفتين.

وربما اقتصر أحدهم في تعليله على جملة واضحة، تكون بمثابة المفتاح التامّ الدلالة، في الكشف عن سر التعاطف غامض المناسبة، فهذا الرازي يحيل قوله تعالى:﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾[فُصِّلَتالآية ٤٧]على نظيره من قول الحق تبارك اسمه في سورة لقمان:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾[لُقْمَان الآية ٣٤] ويقول بعد ذلك: "على نحو ما جمع الله عز وجل ما اختص به من مفاتح الغيب في ذكر هنا ما اختص به من علوم لا تنبغي لغيره"[61].

وفي مناسبة عطف بعض هذه المذكورات على بعض، ثم عطف مشهد من مشاهد القيامة عليها في هذا الموضـــعلا يكتفي أبوحيان بما ذهب إليه الرازي – وهو الذي دائم التعقب له – إذ يقول:"ولما كان ما يخرج من أكمام الشجرة ومـــا تحمل الإناث وتضعه هو إيجاد أشياء بعد العدم، ناسب أن يذكر مع علم الساعة، إذ في ذلك دليل على البعث، إذ هو إعادة بعد إعدام، وناسب ذكر أحوال المشركين في ذلك اليوم، وسؤالهم سؤال التوبيخ فقال: ويوم يناديهم أين شركائي: أي الذين نسبتموهم إلي وزعمتم أنهم شركاء لي،وفي ذلك تهكم بهم"[62].

وقد يذهب المفسرون في توجيه هذا العطف الخفي العلاقة مذاهبًا كان أساسها الاختلاف في فهم معنى الآي، كمـــا حصل باختلافهم في فهم التولي بين الإعراض عن الأمر ولزومه،وأثر ذلك في توجيه مناسبة عطف قطعية الأرحام على الإفساد في الأرض في قوله تعالى:﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾[مُحَمَّد الآية ٢٢]

فمن عد التولي بمعنى الإعراض عن الأمر، ما يلي:

أ) ما ذكره الرازي من أن هذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه، وهو أنهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد، والعرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا؟ فقال تعالى: إن توليتم لا يقع منكم إلا الفساد في الأرض، فإنكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم، أليس قتلكم البنات إفساداً وقطعاً للرحم؟ فلا يصح تعللكم بذلك[63].

ب) ما أورده أبوحيانعن قتادة قوله: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله؟ ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن؟ يشير إلى ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول[64].

ث) ما ذهب إليه البقاعي من أن أقل ما في إعراضهم خذلانهم للمؤمنين المجاهدين بما قد يكون سبباً لظهور الكافرين عليهم فيكونوا بذلك قد جمعوا بين قطيعة أرحامهم وفقدهم لما كان يصل إليهم من منافعهم[65].

ج) ما أورده السيد الآلوسي من تفسير بعضهم التولي بالإعراض عن الإسلام فالفعل لازم، أي: فهل عسيتم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب، وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ووأد البنات[66].

ومن عدّ التولي بمعنى لزوم الأمر من توليه، ما يلي:

أ) ما أورده صاحب البحر المحيط عن جماعة من السلف قولهم بإن المراد من ﴿توليتم﴾، أي أمور الناس من الولاية ويشهد لها قراءة ﴿وليتم﴾ مبنياً للمفعول. وعلى هذا قيل: نزلت في بني هاشم وبني أمية.وعن النبي ‘: «إن تُولِيتم» بضم التاء والواو وكسر اللام، أي إن وليتكم ولاية جور دخلتم إلى دنياهم دون إمام العدل. وعلى معنى إن تُوليتم بالتعذيب والتنكيل وإقفال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والثبات، فإنها كانت ثمرتها الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم[67].

ب) ما ذكره الألوسي من تأويل التولي إذ يقول: "هل يتوقع منكم وينتظر إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أمور الناس وتأمرتم عليهم فهو من الولاية أن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ تناحراً على الولاية وتكالباً على جيفة الدنيا "[68].

وقد يكون الباعث على غموض سر التعاطف دخول معنى في بطن معنى لم يتم بالجملة السابقة للمعطوف عليها، فيأتي ما بعد جملة العطف فيتممه، كما حصل في قوله تعالى:﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[النَّجْممن الآية ٤٥ الى الآية ٥٠]

ففيها عطف معان على بعضها فيما يتعلق بالبدء والخلق والإحياء والإماتة والبعث وكلها متقاربة ومتعالقة ظاهراً وباطناً، ولكن تخللها ما تخفى علاقته بذلك.

فعطف قوله:﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾على﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾وإيلاؤها قوله:﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ خفي المناسبة إذ توسط وصفه بالإضحاك والإبكاء، بين أمور تتعلق بالبعث والنشور ومقدماتهما من الإماتة والإحياء، يجعله موضع بحث وتأمل.

ولكن إذا تأملنا انفراد الآيات الأربع بضمير الغائب﴿هُوَ﴾ لمحنا سر هذا العطف فهي أمور شكك الكفار في اختصاص الله بالقدرة عليها، فجاء التأكيد بالضمير جامعاً بينها، ودالاً على ذلك المعنى.

ثم إنه لا يخفى تناسب الإماتة والإحياء مع الإضحاك والإبكاء، لا سيما والموت يعقبه البكاء غالباً، والإحياء عند الولادة الضحك[69]، وما أحسن قوله:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيا والناس حولك يضحكون سرورا
فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكا مسرورا

ويتمحل الرازي في تجلية خفاء وجه عطف﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾على﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾إذ يقول: "كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى۞ وكان فى معتقدهم أن ذلك بفعلهم۞ كما قال قارون:﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القَصَصالآية ٧٨]ولذلك قال:﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾[النَّجْمالآية ٤٩]لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى۞ فأكّد فى مواضع استبعادهم النسبة إلى الله تعالى الإسناد۞ ولم يؤكده فى غيره"[70].

ويقول ابن أبي الأصبع:"في هذه الآية من البديع محسن (التنكيت) وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسده مسده، لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه فقوله تعالى:﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾خَص الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم؛ لأن العرب كان ظهر فيهم رجل يعرف بأبي كبشة عبدَ الشعرى، ودعا خلقاً إلى عبادتها"[71].

وقد تنشط قرينة مقالية للكشف عن سر التعاطف لكنها من خارج السياق، كما وقع في قوله تعالى:﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[القَمَر الآية ١].

فقد عزا الواحدي (468ه) سر عطف انشقاق القمر على اقتراب الساعة لما أخبر به الصادق الأمين الذي لا نطق عن الهوى من أن زمن مبعثه علامة من علامات اقتراب الساعة، يقول الواحديفي ذلك:" وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ‘ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة"[72] ألم يقل‘ :" بعثت والساعة كهاتين[73].

إلا أن ابن عاشور نحا منحًا آخر في توجيه جامع العطف بينهما حين قال:"جعلت تلك المعجزة –يعني انشقاق القمر–وسيلة للتذكير باقتراب الساعة على طريقة الإدماج بمناسبة أن القمر كائن من الكائنات السماوية ذات النظام المساير لنظام الجو الأرضي، فلما حدث تغير في نظامه لم يكن مألوفاً ناسب تنبيه الناس؛ للاعتبار بإمكان اضمحلال هذا العالم، وكان فعل الماضي مستعملاً في حقيقته[74].

وقد يكون خفاء العلاقة باعثًا للاختلاف في توجيه المعنى القرآني، كما حصل مع قوله تعالى:﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾[القَمَر من الآية ٢ الى الآية ٤]

فقوله: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ بسبب خفاء علاقته بما قبله تشعبت فيه أقوال المفسرين إلى شعب[75]:

أحدها: أن كُلَّ أمْر مستقِرٌّ بأهله، فالخير يستقِرُّ بأهل الخير، والشر يستقِرُّ بأهل الشر، قاله قتادة[76].

والثاني: لكل حديثٍ مُنتهىً وحقيقةٌ، قاله مقاتل.

والثالث: أن قرار تكذيبهم مستقِرّ، وقرار تصديق المصدِّقين مستقِرّ حتى يعلموا حقيقته بالثواب والعقاب، قاله الفراء.

الرابع:"كل قول من الله له حقيقة منه في الدنيا سيظهر، وما كان منه في الآخرة سيعرف. يعني: ما وعد لهم من العقوبة"[77].

الخامس: يعني يستقر قرار تكذيبهم وقرار تصديق المؤمنين حتى يعرفوا حقيقته في الثواب والعقاب قاله الحسن بن الفضل.

وقيل: "مجازه: كلّ ما قدّر كائن واقع لا محالة، وقيل: لكل أمر من أموري التي أمضيتها في خلقي مستقر قراره لا يزول"[78].

وقيل: كل أمر مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق، وحينئذ يكون تهديدا لهم، وتسلية للنبي ‘.

وقيل: وكل أمر مستقر في علم الله تعالى لا يخفى عليه شيء فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم، والأنبياء صدقوا وبلغوا ما جاءهم، كما قال تعالى في هذه السورة:﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ﴾ [القَمَر من الآية ٥٢ الى الآية ٥٣].

وقيل: هو جواب قولهم: سحر مستمر أي ليس أمره بذاهب، بل كل أمر من أموره مستقر[79].

وأطال ابن عاشور في بيانه لهذه الآية، وغايته فيما جرى به قلمه إدراك مناسبة عطف آخرها على ما قبله، وتشخيص الجامع بينهما، فقد رأى أن الكلام تمثيل، شبهت حالة تردد آثار الماهية بين ظهور وخفاء إلى إبان التمكن من ظهور آثارها بحالة سير السائر إلى المكان المطلوب، في مختلف الطرق بين بعد وقرب، إلى أن يستقر في المكان المطلوب. وهي تمثيلية مكنية؛ لأن التركيب الذي يدل على الحالة المشبه بها حذف ورمز إليه بذكر شيء من روادف معناه، وهو وصف مستقر.

ومن هذا المعنى قوله تعالى:﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾[الأَنۡعَام الآية ٦٧]

وفي هذا تعريض بالإيماء إلى أن أمر دعوة محمدٍ سيرسخ ويستقر بعد تقلقله.

والمعنى: أن أمر النبيِ صائر إلى مصير أمثاله الحق، من الانتصار والتمام، واقتناع الناس به وتزايد أتباعه، وأن اتّباعهم أهواءهم واختلاق معاذيرهم صائر إلى مصير أمثاله الباطلة من الانخذال والافتضاح، وانتقاص الأتباع.

وقد تضمن هذا التذييل بإجماله تسلية للنبيِ وتهديدًا للمشركين واستدعاء لنظر المترددين[80].

وقد يتبطن معنى قصي تعاطفَ معانٍ جرى العرف بتعاطفها، ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾[الرَّحۡمَٰن من الآية ٧ الى الآية ١٠]

حيث جاء الحديث عن الميزان وسط الحديث عن السماء والأرض، وعطفه على رفع السماء مع خفاء العلاقة بين هذين المعنيين جعل العلماء يقولون بتعليل لطيف جداً لإثبات هذه العلاقة، يقول البيضاوي ممهداً لتعليل ذكر الميزان هنا:"(وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾أي شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما، قالَ: «بالعدل قامت السماوات والأرض"[81].

ويقول البقاعي: "ولما ذكر إنعامه الدال على اقتداره برفع السماء، ذكر على ذلك الوجه مقابلها بعد أن وسط بينهما ما قامتا به من العدل تنبيهاً على شدة العناية والاهتمام به فقال:{ وَٱلۡأَرۡضَ}أي: ووضع الأرض"[82].

ومنه قوله تعالى:﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾[الوَاقِعَة من الآية ٢٧ الى الآية ٣٤]

فقد توسط الحديث عن ماء وفواكه السدر والطلح والماء، الحديث عن الظل بصيغة العطف، فما علاقة الظل وهو ليس مما يطعم ويشرب.

خرّج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن مجاهد (104ه)قال:"كانوا يعجبون بوجٍّ وظلاله من طلحه وسدره، فأنزل الله تعالى:﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾إلخ "[83] فالحديث عن الظل سوقه ذكر الشجر الجالب له قبل وهو السدر والطلح فلهما ظل كثير نوعي.

إذ ذكر الشجر هو من جلب الحديث عن الظل، ولكن ليس أي شجر، بل شجر السدر والطلح إذ خصوصية حجم أوراقهما ورطوبتهما وما يحصل من امتدادها الجالب للظل، هذه أوصافها في الدنيا فكيف بها في جنات النعيم، ولهذا ناسب أن تذكر نعمة الظل هنا.

ومخالفة عادات القرآن في صور العطف التي ألفها النظم هي الباعث على زيادة الغموض، فبالنظر إلى قوله تعالى:﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾[الحَاقَّة من الآية ٣٣ الى الآية ٣٤] نرى أنه عطف عدم الحض على الإطعام على عدم الإيمان بالله مما لم تجر عادة القرآن به فسبب خفاء في العلاقة؟

قال الألوسي:"وتخصيص الأمرين بالذكر قيل لما أن أقبح العقائد الكفر وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب"[84].

وقد يكون ظاهر عطف الشيء على مثله سببًا من أسباب الخفاء كما نرى ذلك في قوله تعالى:﴿إِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نُوح من الآية ٧ الى الآية ٨]

فلأن الإعلان يلزم منه الجهر خفيت علاقة المتعاطفات هنا، وأحسن ما قيل فيها كلام الفخر الرازي إذ يقول:"واعلم أن هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة، فبدأ بالمناصحة في السر، فعاملوه بالأمور الأربعة، ثم ثنى بالمجاهرة، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار"[85].

وقد يبعد النجعة بعض المفسرين في تأويل معنى واضح بحمله على غير ما يحتمله لتحقيق المناسبة، من ذلك قوله تعالى:﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾[التَّكۡوِير من الآية ١ الى الآية ١٤]

فقد أول بعض المفسرين العشار التي هي النوق بالسحاب الحامل مطر ليتناسب مع الآيات الكونية قبله وبعده[86].

وربما ازدوجت نظرة بعض المفسرين عند نظرته للأمور التي تذكر في المقام الواحد بين تأتّي الجامع بينها وانعدامه، ففي قوله تعالى:﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٞ﴾[الغَاشِيَة من الآية

١٣ الى الآية ١٦]لم يستشكله ابن عاشور دخول الأكواب وسط مفارش السرير، بينما عزا سرّ عدم عطف السرر على العين الجارية إلى انعدام الجامع بينهما، إذ يقول:"وأعيد قوله:﴿فِيهَا﴾ دون أن يعطف﴿سُرُرٌ﴾على﴿عَيْنٌ﴾ عطف المفردات؛ لأن عطف السرر على عين، يبدو نابيًا عن الذوق؛ لعدم الجامع بين عين الماء والسرر في الذهن لولا أن جمعها الكون في الجنة فلذلك كرر ظرف فيها تصريحًا بأن تلك الظرفية هي الجامع، ولأن بين ظرفية العين الجارية في الجنة وبين ظرفية السرر وما عطف عليه من متاع القصور والأثاث تفاوتًا، ولذلك عطف وأكواب، ونمارق، وزرابي؛ لأنها متماثلة في أنها من متاع المساكن الفائقة"[87].

ويدخل فيما توسط فيه معنى جملة من المعاني التي لا تمت له بصلة في أعراف الحديث عادة، قوله تعالى:﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغَاشِيَة من الآية ١٧ الى الآية ٢٠]

فالسماء والأرض والجبال متناسبة والتعالق بينهم واضح، لكن ما هو الأمر بالنسبة للإبل.

يقول الزمخشري:" فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة؟ قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم، ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله، إلا طلب المناسبة..فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز كيف رفعت رفعا بعيد المدى بالإمساك وبغير عمد. وكيف نصبت نصبا ثابتا، فهي راسخة لا تميل ولا تزول. وكيف سطحت سطحا بتمهيد وتوطئة، فهي مهاد للمتقلب عليها"[88].

ومنه قوله تعالى:﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾[الفَجْر من الآية ١ الى الآية ٤]

فالمتعاطفات هنا أوقات لكن الشفع والوتر ما علاقتهما بهذا؟والمشهور فيهما أنهما صلاتان، لذا اتجه بعض المفسرين لتحميلها معان تتعلق بالوقت.

فعن ابن عباس بأن الشفع التروية وعرفة، والوتر يوم النحر. وعن محمد بن كعب القرظي: والفجر آخر أيام العشر، إذا دفعت من جمع. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة،

وقال ابن الزبير: الشفع: يوما منى: الحادي عشر، والثاني عشر. والثالث عشر الوتر.

وهناك من اتجه بجميع المتعاطفات إلى معنىالصلوات لتتناسب، ومنهم ابن عباس فعنه أن الفجر صلاة الصبح.وعن عمران بن حصين، عن النبي‘، قال: "هي الصلاة منها شفع، ومنها وتر"وحتى الليال العشر إشارة إلى ترقب ليلة القدر والاستعداد لها بكثرة الصلاة.

ومن طريف ما أولت به آية الشفع والوتر الاتجاه بهما إلى الأمكنة؛ لتكون في مقابل الأزمنة التي ذكرت قبلها وبعدها، فتتناسب معها.فعن الحسين بن الفضل أن الشفع: درجات الجنة، وهي ثمان. والوتر، دركات النار، لأنها سبعة. كأنه أقسم بالجنة والنار. وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكعبة[89].

ومنه أيضاً:﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[الشَّمْس من الآية ١ الى الآية ٧]

فالمقام هنا مقام الاستدلال على وجود الله عز وجل الذ لا تدركه الأبصار بتعداد بدائع صنائعه، ولكن ما علاقة النفس بالظواهر الكونية؟

ومما جاء في تعليل المناسبة الخفية في عطف الحديث عنها على ما قبلها أن الاستدلال على الغائب لا يمكن الا بالشاهد والشاهد ليس الا العالم الجسماني وهو إما علوى بسيط كالسماء وإما سفلي بسيط كالأرض وإما مركب وهو أقسام أشرفها ذوات الأنفس(90).

ومنه أيضاً:﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾[اللَّيْل من الآية ١ الى الآية ٣]

وقد تكون الأخبار المتواترة قرينة للمفسرين في توجيه سر التعاطف الغامض العلاقة في القرآن الكريم، من ذلك ما وقع منهم عند تلمس سر عطف الطور والبلد الأمين على فاكهتي التين والزيتون في قوله تعالى:﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التِّين من الآية ١ الى الآية ٣]

ولتقريب هذا التباعد، وكشف عطف هذا الخفاء اتجهت به أقوال المفسرين إلى كونها محطات مكانية لعبادة الله .

يقول ابن عطية:"قال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد إيلياء، وقال ابن عباس وغيره: التين مسجد نوح والزيتون مسجد إبراهيم، وقيل التين والزيتون وطور سينين، ثلاثة مساجد بالشام، وقال محمد بن كعب القرظي: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء، وأما طور سينين، فلم يختلف أنه جبل بالشام كلم الله عليه موسى، ومنه نودي، وفيه مسجد موسى فهو الطور"(91).

المبحث الثالث

السمات البلاغية للتعالق الخفي بين المتعاطفات في القرآن الكريم

يستطيع الناظر في شواهد ما تباعد ظاهره من المتعاطفات في القرآن الكريمأن يلاحظ سمات أسلوبية ومعنويةللتعالق الخفي لهذه البنى تتآزر في صناعة هذه العلاقة من جهة والخفاء من أخرى، وأن يردها لأمور، أبرزها:

1)إن كثير من شواهد التعاطف الخفي كانت بين المقسم بـه بدايـة السـور،كقوله تعـالى:﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ﴾وقوله جل ثناؤه:﴿ٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾ وقوله تبارك اسمه:﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾وقولهتعالى:﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾وقـوله سـبحانه:﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾.

2) تعد مجاراة الاستعمال الوارد عن العرب في سننهم من أسباب التعاطف الخفي في القرآن الكـريم، كمـا رأى الرازي في عطف الأرحام على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ أنّ العادة جرت في العرب بأن أحدهم قد يستعطف غيره بالرحم فيقول: أسألك بالله والرحم".

3) تقديم أحد المتعاطفات الخفية على صاحبه إنما كان لخصيصة معنوية، وفق ما يلي:

أ- أن يكون الأولى كما وكيفاً بنقل ما يتغياه المنشيء كتقديم الناس على الحجارة في قوله تعالى:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ لكونهم أكثر إيقاداً للنار منها.

ب-كون المقدم به قوام ما بعده وإتمام له كتقديم المال على الولد في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

ج- كون المقدم مهيئًا لما بعده،كما في تقديم خلق السماوات على خلق الأرض في قوله تعالى:﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾لأن ما يعتريهما من آثار اختلاف الليل والنهار عليهما يهيئ للحديث عن اختلاف ألسنة وألوان البشر.

4)الأكثر في عطف المفردات المتباعدة المعنى كان بين الاسم والاسم، وقل أن يكون بين الفعل والفعل، ولذلك أسباب تعود للتفاضل الحاصل بينهما حيث إن الاسم أصل للفعل، كيف لا وهو يقوم بنفسه وفي ذلك إيجاز يلائم بلاغة اللغة الذكية، فهو يستغني عن الفعل والفعل لا يقوم بنفسه ويفتقر الى الاسم، وما يستغني بنفسه ولا يفتقر إلى غيره أولى أن يكون أصلاً مما لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى غيره، ثم إن في تسميته مصدرًادليل فضله وأصالته ،فلما سُمي مصدراً دلّ على أن الفعل صدر عنه.

5) من موطدات تباعد المتعاطفين في القرآن الكريم:

أ) مخالفة عادات القرآن، كما حصل في قوله:﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [لُقْمَان من الآية ١٦ الى الآيـة ١٧] إذ من عاداته عطف الأمر بالزكاة على إقامة الصلاة[92].

ب) الجمع بين العاقل وغير العاقل كما حصل من عطف البنين على الأنعام، والأموال على الأولاد، والحجارة على الناس.

ج) لجوء النظم لبعض ألوان الإطناب، أو ألوان البديعلى غير العادة لغرض بلاغي ، ومن تلك الأنواع الملحوظة هنا:

***الاعتراض:** فكثيرًا ما وجدنا معنى يتبطن متعاطفات جرى العرف بتعاطفها،كاعتراض عطف الحديث عن الميزان على تعاطف الحديث عن الأرض على السماء في سورة الرحمن .

* **عطف العام على الخاص:**كما حصل من عطف الأرض على الصخرة، مع أنها الصخرة جزء من الأرض.

***استيفاء الأقسام:**وهو نوع من البديع المعنوي، فغالبًا ما يكون أحد الأقسام المتعاطفة غير مألوف دخوله بينها، ويكون سر التعبير بهذا النوع البديع كامن في إيراده، كما حصل أيضًا من عطف السموات والأرض على الصخرة بعد ذكر الحبّةفي آية لقمان الواردة، قصدًا لاستيفاء طرق خفاء الشيء التي لا تكون إلا بإحدى أربع إما بغاية صغره وهو ما ينهض به ذكر حبّة الخردل، وإما ببعده عن الرائي ولهذا عبّر بكونها في السماوات ، وإما بكونه بكونه في ظلمة وهو ما أفاده ذكر الأرض، وإما باحتجابه وهو ما دلّ عليه ذكر الصخرة بين هذه المذكورات المألوفة التجاور في سياق واحد.

وكعطف تصوير الخلق ورزقهم على إيجاد السماوات والأرض، لاعتبارهما طرفي دلائل وجود الصانع التي تكون إما آفاقية أو أنفسية.

* **التنكيت:** وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسده مسده، لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه، كما خَص الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم؛ في سورة النجم عند عطف الآية على آية اختصاصه بالإغناء، بل وأكّده بما لم يؤكد به غيره لغرض سقته في موضع الاستشهاد به من هذا البحث.

6) ليس كل ما خفيت فيه المناسبة داخل فيما نحن فيه، وإن كان من البلاغة بمكان، فإن من أسباب الخفاء الحاصل بين الجمل المتعاطفات أن يكون المعطوف عليه شيء غير الجملة السابقة للمعطوفة، وإنما جملة مفصول بينها وبين الجملة المعطوفة بجمل، تدرك عند التأمل، وقد امتدحه إمام البلاغيين بقوله :" هذا فن من القول خاص دقيق. اعلم أن مما يقل نظر الناس فيه من أمر "العطف" أنه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها، لكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان..وهذا أصل كبير. والسبب في ذلك أن الجملة المتوسطة بين هذه المعطوفة أخيرًا، وبين المعطوف عليها الأولى، ترتبط في معناها بتلك الأولى"[93].

ومن ذلك في كتاب الله قوله تعالى:﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ﴾[هُودالآية ٥٧]على﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [هُود الآية ٥٤] بفاء التفريع، والجملة المعطوفة تفصيل لمضمون الجملة المعطوف عليها ، وقد فصل بينهما

بست جمل ، ولو جرينا على الظاهر وعطفنا جملة:﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ على ما قبلها مباشرة منع من ذلك المعنى، "فعطف الجمل المتباعدة أساسه المعنى"[94].

7) للقرائن دورها في توجيه سر التعاطف غامض الدلالة في القرآن الكريم، كما كان هو الأمر في توجيه خفاء العطف، مطلع سورة القمر وسورة التين، فيما أوردته شواهدهما من هذا البحث.

الخاتمة

تباينت مواقف المفسرين كثيرًا في تطلّب مناسبة العطف خفي العلاقة، وفق العطاءات الربانية والفتوحات الإلهية، ثم ما جادت طاقاتهم ومواهبهم، وظروف الشواهد التي قاربوها، وكان ذلك على النحو التالي:

أ–إبراز هذا الخفاء بطريقة المقارنة بين ما ظهر فيه وجه العطف بين التراكيب وما خفي، كما حصل من أبي حيان عندما أبان عن وجه قرن البنين والأنعام في كلام واحد، والجنات والعيون في كلام، وإشارته بعد ذلك لهذا التمايز، حين أشار لخفاء جمع الأنعام والبنين بقوله:"ومن ذلك يعلم وجه قرنهما". ثم قال:"ووجه قرن الجنات والعيون في قوله تعالى:﴿وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[الشُّعَرَاءالآية ١٣٤]ظاهر۞وكذاوجه قرنهما مع الأنعام"[95].

ب –الحرص الكبير على اكتشاف سر العطف في مثل هذه الأحوال لدرجة لم يسلم صاحبهاحال إذٍ إما من التأوّل بالمجاز، أو حتى التكلف.

فمن الأول ما حصل مع الزمخشري كما مرّ بنا عندما تأوّل الأيدي والأبصار بالأعمال والفِكر.

ومن الثاني قول ابن عاشورفي سر عطف العمل على الأكل في قوله تعالى:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المُؤْمِنُون الآية ٥١] مع كونهما متباعدين:"بيان كرامة الرسل عند الله ونزاهتهم في أمورهم الجسمانية والروحانية، فالأكل من الطيبات نزاهة جسمية والعمل الصالح نزاهة نفسانية[96]، ولا يخفى مثل هذا التكلف عند التأمل،وفي نظري أنه لو قال: بأن الأكل من الطيبات سبيل التوفيق إلى العمل الصالح، لكان أحرى وأجدر بالقبول، كما أن أكل الحرام مانع من استجابة الدعاء.

وما حصل من تكلّف بعض المفسرين مما أشرت إليه سابقًا بحمل معنى العشار في سورة التكوير التي هي النوق حيث فسروها بالسحاب الحامل مطر ليتناسب مع الآيات الكونية قبله وبعده

ج – الإعراض عن مقاربته، وكأن شيئاً لم يكن، كالرازي في بعض مواضعها، وهو الذي لم يكن من عادته أن يضيع مثل هذه اللطائف في مسائله التي يثيرها عند الآي.

د– القلق منه، كما حصل من القلق الذي أبداه الزمخشري – فيما مرّ معنا – من الجمع المتحصّل بعطفالأيدي على الأبصار على قراءة ابن مسعود،بحذف الياء من الأيدي لتكون من التأييد، لدرجة جعلت أبا حيّان يقول:"وإنما كان قلقاً عنده لعطف الأبصار عليه، ولا ينبغي أن يقلق، لأنه فسر أولي الأيدي والأبصار بقوله: يريد أولي الأعمال والفكر".

ه – طول تعليل مناسبة التعاطف الخفي وعمقه، لدرجة لا يسلم فيها من التمحل، وكلّما اشتد خفاء غرض العطف، أطال أحدهم في عرض الغرض، وهو أمر ملحوظ بالنظرة العجلى فيما نقلناه من كلامهم رحمهم الله عند شواهد هذا البحث، خاصة عند من يتبع مدرسة فلسفية في التفسير كالرازي.

و– الاتكاء على أحد طرفي العطف في استنتاج العلاقة الخفية، كما حصل من ابن عاشور إذ وظّف ذكر تصوير الإنسان ورزقه توظيفًا بديعًا، لما جعله سبب عطفه على خلق السماوات والأرض، الذي هو أحد طرفي العطف، باعتبار

أن هذه العوالم إنما كانت أعظم غايات خلقها تسخيرها لمصالحه الدنيوية والأخروية بشتّى أنواعها وعلى رأسها الاستدلال بعظمة إيجادها على عظيم الموجد سبحانه.

ز – توجيه المعنى وجهة بعيدة تخلّصًا من المؤاخذة، كعدّ إحدى المتعاطفتان معترضة، مما يرفع كلفة البحث عن مناسبتها لصاحبتها، لتصبح الثانية معطوفة على بعيد متقدم في الكلام، ومن ذلك ما صنعه الرازي عند قوله تعالى:﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[الذَّارِيَات من الآية ١٩ الى الآية ٢٠]

فقد جعل الآية الأولى اعتراضية واتكأ على ذلك في جميع توجيهاته لغرض عطف الأخرى.يقول: "يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن يكون متعلقاً بقوله:﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾[الذَّارِيَاتمن الآية ٥ الى الآية ٦]... ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾[الذَّارِيَاتالآية ٢٠]تدلهم على أن الحشر كائن كما قال تعالى:﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾[فُصِّلَت الآية ٣٩]إلى أن قال:﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾[فُصِّلَتالآية ٣٩]

وثانيهما: أن يكون متعلقاً بأفعال المتقين، فإنهم خافوا الله فعظموه فأظهروا الشفقة على عباده، وكان لهم آيات في الأرض، وفي أنفسهم على إصابتهم الحق في ذلك، فإن من يكون له في الأرض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى ويتقى، ومن له من أنفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق أن يعبد ويترك الهجوع لعبادته، وإذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير، وإذا علم أن الرزق من السماء لا يبخل بماله، فالآيات الثلاثة المتأخرة فيها تقرير ما تقدم، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الذَّارِيَات الآية ٢٣] يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الأول أقوى وأظهر" [97].

وحذا حذوه ابن عاشور في آية سورة فصلت لما حكم على جملة:﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ بأنها اعتراضية بين جملة:﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾[الآية ١٩]وجملة﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾[الآية ٢٤] مع طول الفاصل بينهما كما نرى.

ح – الاختلاف في توجيه سر التعاطف الغامض تبعًا للاختلاف في فهم معنى الآي، كما جرى بينهم من الاختلاف في فهم التولي من سورة محمد' بين الإعراض عن الأمر ولزومه.

وقد يحدث العكس بحيث يكون خفاء العلاقة باعثًا للاختلاف في معنى الآي كالذي أوردته من اختلاف المفسرين فيقوله تعالى :﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ لخفاء سر عطفها على ما قبلها في موضعها.

ط– ازدواج موقف بعض المفسرين من معيار الغموض عند تواجد أمرين في مقام واحد، كما صنع ابن عاشور في الشاهد الوارد من آيات سورة الغاشية الذي لم يستشكل عطف الأكواب على السرر، بينما عزا سرّ عدم عطف السرر على العين الجارية إلى انعدام الجامع بينهما.

Abstract

Assessment of Quran interpreters' rhetorical analysis of the implicit interrelationship among words linked through conjunctions

By Saeed Othman Al-Mulla

What makes the Holy Qur'an so aesthetics in the matter of semantics is that it combines what seems to be contradictions. As if you read it thoroughly and study its structures and specific meanings, you will find inventive secrets and purposeful meninges that are invisibly connected, that is related to its high methods. This might be reflected in the prepositions between vocabulary, or between sentences. The rhetoric of the interpreters, may God have mercy on them, have many theories in this field that are worthy of study, although some of them were so intentional to support their point, yet they contributed to the development of studies in this field which is the focus of this research.

Keywords: Quranic rhetoric, sequencers, hidden relationship.

الهوامش

(1) سيأتي الحديث عن قلق الزمخشري من قراءة ابن مسعود رضي الله عنه للفظ (الأيدي) بطرح الياء والاكتفاء بالكسرة في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥﴾[صالآية ٤٥] للخفاء الشديد الذي سببته هذه القراءة في مناسبة عطف الأبصار على الأيد.

(2) أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية لمحمد الشاوش 484/1.

(3)دلائل الإعجاز: 225.

(4) ينظر: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي (الأصول والامتداد)، د. أحمد المتوكل: 190.

(5) ينظر: عطف التغاير في القرآن الكريم للمتولي محمود عوض حجاز،من مجلة الدراسات اللغوية مج13ع4 ص .25

(6)العطف ووظائفه التركيبية والدلالية في سورة " هود " د. فضل يوسف زيد: 3.

(7)مقال بعنوان:فلسفة الجمع بين المتباينات لعبد الرحيم الهبيل. مجلة أقلام الثقافية الإلكترونية 2009/7/26م.

(8) بحث في علم الجمال جان برتليمي ترجمة أنور عبد العزيز: 567 المركز القومي للترجمة 1821م.

(9)ينظر: أسرار البلاغة: 148.

(10) ينظر: التفكير واللغة والتفاعل النفسي أ.د. عبد الله المفلح: 98.

(11) ينظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم د.عفت الشرقاوي: 205، والجمع بين المتباعدات لزكريا الكندري 119.

(12) ينظر: المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية 186/5-187.

(13) ينظر: عطف التغاير في القرآن الكريم للمتولي محمود عوض حجاز ص 51.

(14) ينظر: النحو الوافي لعباس حسن 557/3.

(15) الكشاف 103/1.

(16) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 176/1،وتفسير حدائق الروح والريحان للهرري 238/1.

(17)ينظر: مفاتيح الغيب 152/7، والتحرير والتنوير 60/4.

(18) نظم الدرر 253/4.

(19) تفسير الطبري 523/7.

(20)روح المعاني 396/2.

(21) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُون﴾ [الشعراء:132]

(22)ينظر: البحر المحيط 179/8.
(23)ينظر: روح المعاني 11/ 87، والتحرير والتنوير 163/21.
(24) ينظر: روح المعاني 87/11.
(25) تفسير حدائق الروح والريحان279/22
(26)التحرير والتنوير 163/21
(27) الكشاف 99/4.
(28) مفاتيح الغيب 399/26.
(29)البحر المحيط 9/ 164.
(30) الانتصاف فيما تضمنه الكشّاف، مطبوع على هامش الكشاف 92/3.
(31)المصدر السابق456/4، وانظر: التحرير والتنوير 322/16 فقد ذكر كلام ابن حيان وزاده إيضاحًا.
(32) الكشاف 92/3.
(33) تفسير حدائق الروح والريحان 450/17.
(34) شرح المفصل لابن يعيش 5/5.
(35) ينظر: عطف التغاير في القرآن الكريم للمتولي محمود عوض حجاز 52- 55.
(36) عن السدي وابن عباس كان أهل الجاهلية التزموا تحريم اللم والودك في أيام الموسم، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً، ونسب في «الكشاف» ذلك إلى بني عامر.
(37)قوله تعالى:﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾[الأَعۡرَافالآية ٢٩] .
(38) مفاتيح الغيب228/14.
(39) مختصر صحيح البخاري 32/4.
(40) مختصر صحيح البخاري 32/4.
(41)التحرير والتنوير 94/8.
(42)ينظر: التحرير والتنوير 73/21.
(43) البحر المحيط في التفسير 8/ 259.
(44) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 14/ 191.
(45) التحرير والتنوير 14/20.
(46)المصدر السابق 15/20.
(47)ينظر: روح المعاني 11/ 88.
(48)ينظر: الكشاف496/3.
(49) أقول:ولهذا عذب الله قوماً بالصيحة، وأشار إلى ذلك القرآن في قوله تعالى:﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾[هُودالآية ٩٤].
(50) ينظر: مفاتيح الغيب 122/25.
(51)ينظر: البحر المحيط 417/8.
(52)ينظر: مفاتيح الغيب 424/26.
(53)ينظر: التحرير والتنوير 332/23.
(54) مفاتيح الغيب 578/27.
(55) نظم الدرر 241/17.
(56) مفاتيح الغيب 27/ 526.
(57)ينظر: البحر المحيط 9/ 267.
(58) ينظر: مفاتيح الغيب 529/27.
(59)ينظر: التحرير والتنوير190/24.
(60)المصدر نفسه 268/24.
(61) مفاتح الغيب 571/27.
(62) البحر المحيط في التفسير 9/ 314.
(63) ينظر : مفاتيح الغيب 28/ 54.
(64)ينظر : البحر المحيط 472/9.

(65)ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 18/ 241.
(66)ينظر: روح المعاني 13/ 224.
(67)ينظر : البحر المحيط 472/9.
(68)روح المعاني 13/ 224.
(69) ينظر : روح المعاني 67/14.
(70) مفاتيح الغيب 281/29.
(71) تحرير التحبير 499.
(72) التفسير البسيط 90/21.
(73) في صحيح البخاري برقم (4936) عن سهل ابن سعد رضي الله عنه.
(74) نظم الدرر 149/19.
(75)زاد المسير لابن الجوزي 197/4.
(76)جامع البيان 572/22.
(77)بحر العلوم للسمرقندي 370/3.
(78) الكشف والبيان للثعلبي 162/9.
(79) ينظر: مفاتيح الغيب 289/29.
(80)ينظر: التحرير والتنوير 172/27.
(81) أنوار التنزيل 190/5.
(82)نظم الدرر 149/19.
(83) تفسير مجاهد 642.
(84)روح المعاني 57/15.
(85)مفاتيح الغيب 651/30.
(86)ينظر : البحر المحيط 414/10.
(87)التحرير والتنوير301/30.
(88)الكشاف 743/4.
(89)ينظر في هذه الأقوال جميعًا: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 40/20-42.
(90) ينظر : روح البيان لإسماعيل حقي 442/10، وتفسير حدائق الروح والرياح 42/32.
(91) المحرر الوجيز لابن عطية 499/5.
(92)﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[البَقَرَةالآية ٤٣] وقوله جل علاه : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾[النُّور الآية ٥٦] .
(93) دلائل الإعجاز 244.
(94) العطف ووظائفه التركيبية والدلالية في سورة " هود " د. فضل يوسف زيد ص26.
(95) ينظر: البحر المحيط 179/8.
(96)التحرير والتنوير 68/18.
(97) مفاتيح الغيب171/28.

المصادر والمراجع

1. أسرار البلاغة: الجرجاني، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن.تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر. القاهرة: مطبعة المدني.
2. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: الشاوش، محمد. (2001م). تونس: المؤسسة العربية للتوزيع.
3. أنوار التنزيل: البيضاوي، عمر بن محمد. (1418ه)تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
4. بحث في علم الجمال: عبدالعزيز، أنور. (1821م) مصر: المركز القومي للترجمة.
5. بحر العلوم: السمرقندي، أبوالليث نصر بن محمد.
6. البحر المحيط: الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (1420 ه)تحقيق: صدقي محمد جميل. بيروت: دار الفكر.
7. بلاغة العطف في القرآن الكريم: الشرقاوي، د.عفت..

8. تحرير التحبير: ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر العدواني. تحقيق: د.حفني محمد شرف. مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.
9. التحرير والتنوير: بن عاشور، محمد الطاهر(1984م) تونس:الدار التونسية للنشر.
10. التفسير البسيط: الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد(1430 هـ) ط:1. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
11. تفسير حدائق الروح والريحان: الهرري، (1421 هـ)إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط1. بيروت: دار طوق النجاة.
12. تفسير مجاهد: أبوالحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي، تحقيق د. محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة الأولى،1410ه.
13. التفكير واللغة والتفاعل النفسي: المفلح، عبد الله، مركز الكتاب الأكاديمي.
14. جامع البيان الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. (1420 هـ)تحقيق: أحمد محمد شاكر. ط1. بيروت:مؤسسة الرسالة.
15. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، أبوعبدالله شمس الدين محمد بن أحمد. (1384ه) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط2. القاهرة: دار الكتب المصرية.
16. الجمع بين المتباعدات قراءة في الدرس اللغوي لابن جني: الكندري، د.ز.كريا. كلية الآداب، جامعة الكويت.
17. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: السيوطي، جلال الدين. بيروت: دار الفكر.
18. دلائل الإعجاز: الجرجاني، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن(1413ه)تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر. ط3. القاهرة: مطبعة المدني.
19. روح البيان: حقي، إسماعيل. بيروت:دار الفكر.
20. روح المعاني:الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني(1415 ه)في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط1. بيروت:دار الكتب العلمية.
21. زاد المسير: ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي (1422 هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي.
22. شرح المفصل: ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الأسدي الموصلي(1422 ه)قدّم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
23. عطف التغاير في القرآن الكريم: حجاز، متولي محمود عوض(1432ه) مجلة الدراسات اللغوية مج13ع4.
24. العطف ووظائفه التركيبية والدلالية في سورة هود:زيد، فضل يوسف (2015م) حوليات آداب عين شمس، المجلد 43، أبريل.
25. فلسفة الجمع بين المتباينات: الهبيل، عبد الرحيم (26-7-2009م) مقال في منتديات مجلة أقلام الثقافة الإلكترونية،.
26. الكشاف: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد. (1407 ه)ط3. بيروت: دار الكتاب العربي.
27. الكشف والبيان:الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد (1422 هـ)تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
28. المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسي، أبومحمد عبد الحق (1422 هـ)ط1.بيروت: دار الكتب العلمية.
29. مختصر صحيح البخاري: الألباني، أبو عبدالرحمن ناصر الدين محمد. (1422ه)ط1. الرياض: مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع.
30. مفاتيح الغيب: الرازي، فخر الدين. (1420 ه)ط3. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
31. المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. (1428ه)تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين وآخرون. ط1. مكّة: جامعة أم القرى.
32. مقاييس اللغة: ابن فارس، أبو الحسين أحمد. (1399ه) تحقيق: عبدالسلام هارون. القاهرة:دار الفكر.
33. المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي (الأصول والامتداد): المتوكل، أحمد، (1427ه). ط1. الرباط: دار الأمان.
34. النحو الوافي: حسن، عباس.ط15. مصر: دار المعارف.

35. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط.القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

1. al-Adwani, A. A. Tahreer Al-Tabeer.Egypt: The Supreme Council for Islamic Affairs - Society of the Revival of Islamic Heritage.
2. Ibn al-Jawzi, A. A.(1422 AH).Zaad Al Muyassar, (1st ed). Beirut: Dar al-Kitab al-Arabi.
3. al-Andalusi, A. A.(1422 AH).Al-muharir Al-Wajeez, (1st ed). Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmia.
4. Ibn Faris, A. A.(1399 AH).Language standards. Cairo: Dar Al-Fikr.
5. Ibn Ya'ish, Y. A.(1422 AH).Sharh Al Mufassal, (1st Ed). Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmia.
6. Al-Albani, N. M.(1422 AH).Summary of Sahih Al-Bukhari, (1st ed). Riyadh: Al-Maaref Library for Publishing and Distribution.
7. Al-Alusi, M. A. (1415 AH).Rouh Al-Maani, fi Tafsir Qur'an al-'Azim wa as-Sab' al-Mathani. (1st ed). Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmia.
8. Andalusi, M. Y.(1420 AH).Al-bahar Al-muheet. Beirut: Dar Al-Fikr.
9. Al-Rabat, I. O. Nathem Al-Durar fi tanasub al-ayaat wa al-surahs. Cairo: Dar Al-Kitab Al-Islami
10. Ibn Achour, M. E.(1984 AD).Liberation and Enlightenment. Tunisia: Tunisian House of Publishing.
11. Al-Baidawi, O. M.(1418 A.H.). Anwar Al-Tanzil, (1st ed). Beirut: Dar Ihya al-Turath al-Arabi
12. Al-Tabi'i, M. J.(1410 AH) Tafseer Mujahid, (1st ed).. Egypt: Dar Al-Fikr Al-Islami Al-Hadeeth.
13. Al-Thalabi, A. M.(1422 AH).Al-Kashf and Al-Bayan, (1st ed). Beirut: Dar Ihya Al-Turath Al-Arabi.
14. Al-Jurjani, A. A.(1413 AH).Dalayil Aliaeijaz, (3rd Ed), Cairo: Matbaa Al-Madani.
15. Hegaz, M. M.(1432 AH).Ataf Altaghayur fi Al-Qur'an Alkarim.Journal of Linguistics Studies Volume 13 v 4.
16. Hassan, A.Alnahw Alwafi, (15th Ed). Egypt: Dar Al-maearif.
17. Haqqi, I.Rouh Albayan.Beirut: Dar Al-Fikr.
18. Al-Razi, F.(1420 AH),Mafateeh Alghayb, (3rd Ed). Beirut: Dar Ihya Al-Turath Al-Arabi.
19. Al-Zamakhshari, M. A. (1407 AH).Al-Kashaf.(3rd Ed). Beirut: Dar Al-kitab Al-Arabi.
20. Zaid, F. Y. (2015 AD). Al-atf wa wazayifuh altarkibiaا wa Al-dalalia fi Surat Hud.Hawlyat Adaab Ain Shams, Volume 43, April.
21. Al-Samarqandi, N. M. Tafsir as-Samarqandi.
22. Zaid, F. Y. (2015 AD). Al-atf wa wazayifuh altarkibiaا wa Al-dalalia fi Surat Hud.Hawlyat Adaab Ain Shams, Volume 43, April.
23. Al-Samarqandi, N. M. Tafsir as-Samarqandi.
24. Al-Suyuti, J. A.Al-Durr Al-Munthoor fi Al-Tafseer bi Al-maathoor.Beirut: Dar Al-Fikr.
25. Al-Shatibi, I. M. (1428 AH).Almaqasid Alshaafiat fi Sharh Alkhalasih Alkafih, (1st ed). Mecca: Umm Al-Qura University.
26. Al-Shawsh, M.(2001 AD).Asul Tahlil Alkhitab fi Alnazarih Alnahwih.Tunisia: Almuasasat Alearabiat li Alt-awzie.
27. Al-Sharqawi, E.Balaghat Al-atf fi Al-Qquran Al-karim.
28. Tabari, M. J.(1420 AH).Jami' al-Bayan, (1st ed). Beirut: Al-Resala Foundation.
29. Abdulaziz, A.(1821 AD).Bahath fi Eilm Aljamal.Egypt: The National Center for Translation.
30. Al-Qurtubi, M. A.(1384 AH).Aljamie li Ahkam Al-Qur'an, (2nd ed). Cairo: Dar Akutub Almassryah.
31. Al-Mutawakel, A. (1427 AH).Almunahanaa Alwazifiu fi Alfikr Allughawii Al-Arabii (Al'usul wa Al-iamtidadi) (1st ed). Rabat: Dar Al-Aman.
32. Al-Mufleh, A.Thinking, language and psychological interaction.
33. Al-Habil, A.(26-7-2009 AD).Falsafat Aljame bayn Almutabayinat.Article in the electronic magazine 'aqlam althaqafih.
34. Al-Harari, (1421 AH).Tafsir Hadayiq Alruwh wa Alrayhan, (1st ed). Beirut: Dar Touq Al-Najat.
35. Al-Wahidi, A. A.(1430 AH).Altafsir Albasit.(1st ed). Riyadh: Imam Muhammad bin Saud Islamic University.